العجز امام الحقيقة والهروب الى الامام

ملاحظات حول الصحافة العربية في الخامس من حزيران

الدكتور فيصل دراج

« لا تقدم الايدولوجيا نظام العلاقات الحقيقية التي تحكم وجود الافراد ، بل تقدم العلاقة الوهمية لهؤلاء الافراد بالعلاقات الحقيقية التي يعيشون تحتها » .

آلتوسر

تحاول الدولة والتي هي الناطق الرسمي باسم طبقة منتصرة في حقل تاريخي محدد أن تدعم وتبرر وجودها بكل السبل والاشكال المكنة ، أي أن تنشر وتبث كل الاطروحات والمقولات التي تظهر شرعية وجود الدولة كقوة شمولية لا طبقية ، كقوة سرمدية تقف فوق الطبقات لتصالح وتلجم نزاع هذه الطبقات . بالاضافة الى هذا تطمح الدولة وتناضل من أجل خلق وصياغة أفراد يسلمون بشرعية وجود الدولة كقوة الهية تعمل على صيانة النظام وتطبيقه . فمجال اللعبة هنا تحدده اذن ثلاثة عناصر : العنصر الاول تمثله الطبقة المسيطرة أو المجتمع السياسي في بحثها عن شرعية مستحيلة . والعنصر الثاني هو الشعب أو المجتمع المدني والذي هو حقل اهتمام المجتمع السياسي ، واهتمام هنا يعني ترويض المجتمع المدني وتحويله الى كلية سلبية لا تعيق ممارسات الطبقة المسيطرة . لن نتكلم هنا عن الشكل الاول الذي تستعمله الدولة من أجل الترويض والممثل بالقمع الجسدي والارهاب البوليسي ، وانما سنتكلم عن الشكل الآخر من القمع : القمع الايدولوجي . ونعني بالقمع الايدولوجي الاثر الحاصل لدى الفرد من جراء تلقيه المستمر لاطروحات المجتمع السياسي والواصلة اليه من خلال آلة الدولة الدعائية ، أو ما يسميه غرامشي بالبنيان الايدولوجي والذي هو « كل ما يؤثر أو يستطيع أن يؤثر بشكل مباشر او لا مباشر على الرأي العام »(١) .

وهدف البنيان الايدولوجي المباشر صنع أفراد لا يرون الواقع على حقيقته وانما يرون صورة وهمية عن هذا الواقع(٢)، وبالتالي فالفرد لا يرى موقعه الاجتماعي وواقعه المعاش انطلاقا من محاكماته الحرة بل من خلال حزمة مفاهيم ضبابية محددة على المستوى الاخير بالبنيان الايدولوجي ، معنى ذلك أنه يتملك صورة مشوهة عن الواقع رسمت بحيث تخدم أولا وأخيرا الطبقة المسيطرة . وكما يرى غان الفرد هنا يقع ضحية للتجهيل والتضليل ويستحيل بالتالي الى أنا خام عاجزة عن الفعل الصحيح لانها لا تملك الا انعكاسا شائعا للواقع والعلاقات المحددة له . فالمعرفة المشوهة للعالم تولد وتفرز ديالكتيكيا كيانا سلبيا لا يتحرك الا ضمن اطار محدد مسبقا بمصالح الجهاز المسيطر .